

مقال في المنهج

د. علي عليوة¹

ملخص: يهدف هذا المقال إلى توضيح تصور منهجي عام حول المنهج العلمي في العلوم الاجتماعية، فكما يُقال "علم الاجتماع علم كثير المناهج، قليل النتائج"، نقدّم هذه المساهمة في سبيل توضيح رؤية علمية للمنهج السليم في العلوم الاجتماعية، معتمدين على تصورات رائد الفلسفة العلمية "غاستون باشلار" Gaston Bachelard للمنهج عموماً وكيفية الاستفادة من الصرامة العلمية الموجودة في العلوم الطبيعية وعلوم المادة قصد إسقاطها على العلوم الاجتماعية، وتلك الخطوات الإجرائية للبحث العلمي في العلوم الاجتماعية لريموند كيفي Raymond Quivy، متّبعين بذلك تصوراً منهجياً علمياً عام، وخطوات ومسار بحث إجرائي متناسق مع هذه التصورات، إضافة إلى محاولة منا لتوضيح مفهومي الذاتية والموضوعية، وكيفية فصل الذات عن الموضوع قصد البحث العلمي الدقيق، وعدم الانغماس في الموضوع.

Résumé

Cet article a pour objet de donner une conception générale sur la méthode scientifique dans les sciences sociales, comme dit l'adage: en sciences sociales les méthodes sont nombreuses mais les résultats sont minimes"

Nous présentons cette contributions dans le but de clarifier une vision scientifique de la méthode adéquate dans les sciences sociales en se basant sur les conceptions du leader de la philosophie scientifique: GASTON Bachelard sur la méthode en général et la façon de tirer profit de la rigueur scientifique omniprésente dans les sciences naturelles, les sciences de la matière en vu de sa projection sur les sciences sociales, et les démarches opérationnelles de la recherche scientifique de RAYMOND Quivy suivant dans ce sens une conception méthodologique scientifique générale , des démarches et une péripiétie d'une recherche opérationnelle systématique avec ces conceptions en plus et dans un éventuel objectif de notre part visant d'illustrer les concepts de: subjectivité et objectivité et la façon de les séparer dans le but de la recherche scientifique précise sans se dissiper dans le sujet.

¹ أستاذ محاضر "ب" جامعة محمد الشريف مساعديّة، سوق أهراس، الجزائر.

تمهيد: يُعتبر عصر التنوير بمثابة الحقبة الزمنية الأكثر أهمية في ولادة ونشأة العلوم الاجتماعية، دون إغفال للتراكمات الفكرية والفلسفية التي قدّمت الفكر الاجتماعي والفلسفة الاجتماعية إلى واجهة العلوم، في خطوة للتأصيل العلمي، والصرامة العلمية، بانيةً بذلك منهجاً علمياً لا يكاد يختلف كثيراً عن ما هو موجود في العلوم التجريبية، حيث أصبح همّ الكثير من السوسيولوجيين هو البحث في الجزئيات المنهجية ودراساتها وتقريبها تقريباً تجريبياً، بإسقاط مناهج العلوم الدقيقة على الظواهر الاجتماعي.

فلمنهج العلمي هو الذي يميّز بين المعرفة العلمية والمعرفة غير العلمية، ويجب أن نشير هنا إلى أن العلوم جميعاً سواء فيزيقية أو بيولوجية أو اجتماعية تستخدم منهجاً واحداً هو المنهج العلمي ولكن كل منها يتبع أساليب مختلفة في تطبيق هذا المنهج على الظواهر التي يدرسها كل علم (1).

ويعتبر تالكوت بارسونز أن العصر الذهبي للعلوم الاجتماعية كان نتيجة مجهودات "الآباء المؤسسين" *pères fondateurs* أمثال أوجست كونت، دوركايم، ماكس فيبر، وباريتو ... لأن هؤلاء أعطوا تفسيراً معقولاً ومقبولاً للتحويلات الاجتماعية الحاصلة في تلك الحقبة الزمنية، كما حاول أوجست كونت وضع الأسس المنهجية للعلم الجديد والإطار المنهجي لعلم الاجتماع الذي يستند أساساً إلى الفكرة التي مؤداها أن المفاهيم مشتقة من الواقع وأن الظواهر خاضعة لقوانين عامة ، والمعرفة الوضعية تستمد عن طريق عدد من المصادر والإجراءات هي (الملاحظة، التجربة، المقارنة، المنهج التاريخي) (2).

وبذلك تمّ خلق مناهج وتكييفها حسب الحاجة للوصول إلى الحقائق، وكما يُقال أن "علم الاجتماع علم كثير المناهج قليل النتائج"، هل وصل علم الاجتماع إلى الدقة في تحديد النتائج؟ ما السبيل إلى ضبط منهج دقيق يسمو بعلم الاجتماع إلى ترتيب يضاهي العلوم الدقيقة وعلم المادة من حيث الصرامة العلمية؟ ما هي الخطوات الأساسية والمفاهيم الإجرائية الواجب أن يتبناها الباحث تاركاً وراءه جملة التكهنات والأفكار المسبقة والابتعاد عن الذاتية؟

أولاً- تصور عام حول المنهج في العلوم الاجتماعية: يعرف العلم في قاموس القرن العشرين للغة الإنجليزية بوصفه المعرفة المنسقة التي تنشأ من الملاحظة والدراسة والتجريب، ويطلق العلماء على الطريقة العلمية التي يسلكونها من أجل إنتاج المعرفة العلمية والتحقق صدقها، خطوات المنهج العلمي، أو "المنهجية" والتي تعرف على أنها "مجموعة المناهج والتقنيات التي تسهم في بلورة البحث وقيادة خطواته العلمية" (3)، والتي تتم بهدف تحديد طبيعة وأصول الظاهرة التي تخضع للملاحظة والدراسة" (4)، وتبدأ كل الدراسات العلمية الأصلية بتصورٍ للمنهج، تصور عام يتيح للباحث هوامش مقارنة بحثه بنظرة دقيقة وتصور عميق للمنهج أو الطريقة التي

من خلالها يمكن له أن ينتهج سبيلا علميا يسمو بأفكاره إلى أن تصل بر الأمان لكشف الحقيقة وأسبابها الخفية، فالعلم أساسه البحث عن ما تخفيه الظواهر " *Il n'y a de science que de ce qui est caché* " (5)، لكن ذلك لا يتأتى إلا بالانصياع التام للمنهج العلمي والصرامة العلمية ضاربا عرض الحائط كل الأحكام المسبقة، متجردا من ذاتيته، حيث تبدو الظاهرة الاجتماعية كشيء منفصل عن ذاتنا انفصالا تاما، لذلك يجب أن يكون المنهج في العلوم الاجتماعية متناسقا في مراحلها وفق مبادئ منطقية متسلسلة كما أشار إليها إميل دوركايم *Emile Durkheim*:

- أ. لا شفافية الواقع : فالبحث الذي يدخل إلى خفايا الظاهرة ويحاول الغوص في جزئياتها وتحليلاتها هو البحث الهادف، فرؤية الباحث يجب أن تكون لواقع غير شفاف مغاير للرؤية العامة، فالمواضيع في العلوم الاجتماعية غير معطاة انطلاقا من لاشفافية الواقع الاجتماعي، والذي يضمّر أسبابا خفية تحتاج ما يسمى بـ "الخيال السوسيولوجي" (6)، وهو "الاستعادة التصورية (الخيالية) لنسيج الحياة الاجتماعية التي اندثرت اليوم إلى حد بعيد" (7)، من أجل فك شفراتها وإيجاد رؤية واضحة لأسبابها والبحث عن تشخيص لعللها.
- ب. تفسير الاجتماعي بالاجتماعي: تعتبر هذه الخطوة أو هذا التصور غاية في الأهمية لمن أراد أن يدرك المعنى الحقيقي للدراسات السوسيولوجية، كون هذا التصور يفصل فصلا تاما بين العلوم، فيحدد حقول بحثها، وحيز تجاربها ومقارباتها، حيث يتم في العلوم الاجتماعية تفسير الاجتماعي بالاجتماعي، أي أن كل علة اجتماعية لديها ما يقابلها من معلول اجتماعي، ولا غير الاجتماعي... والاجتماعي يخضع لمعايير مقارباتية سوسيولوجية، أي أن المقاربة السوسيولوجية هي التي تفتك الموضوع وترفعه إلى مستويات علمية وتعطيه التأويل السوسيولوجي، فالخروج عن هذه القاعدة يجعل مسار البحث يحد عن المسار الحقيقي للعلوم الاجتماعية ويبعدها عن الصواب، كون أن تفسير الاجتماعي بالميتافيزيقي أو الديني أو النفسي يجعل من الموضوع يأخذ سياقاً آخر غير البحث السوسيولوجي، أي أن الظاهرة الاجتماعية يجب أن يقابلها ما هو اجتماعي قابل للقياس، "فإما أن تكون الظاهرة جزءا لا يتجزأ من بقية المجتمع، ومنها ما يرجع للتأثير المتبادل بين هذا المجتمع وبين المجتمعات التي تجاوره" (8)، لذلك يجب على الباحث في الظواهر الاجتماعية أن يعي حقيقة الظاهرة الاجتماعية والطرق المناسبة للكشف عن خفاياها وأسبابها كما يذهب إميل دوركايم، "يجب أن نعلم قبل البدء في البحث عن الطريقة التي تتناسب مع دراسة الظواهر الاجتماعية حقيقة الظواهر التي يطلق عليها الناس هذا الاسم" (9)

ج. ملاحظة الظواهر الاجتماعية كأشياء: حيث أن لعلم الاجتماع موقف منهجي يدرس الظاهرة كشيء مادي، وأكد دور كاييم على ضرورة تناول الظواهر الطبيعية كأشياء، وهو "التأكيد الذي صراحة أو ضمناً محاكاة العلوم الطبيعية، وتطبيق نظرتها وتصوراتها للظاهرة الطبيعية على مختلف الظواهر الاجتماعية" (10)، وبذلك يماثل دور كاييم بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية، "فكما أن للكائن العضوي تعبير للكائن العضوي ووظائفه، فإن الحياة الاجتماعية تعبير وظيفي عن البناء الاجتماعي" (11).

لذلك يؤكد دور كاييم على وجوب ملاحظة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء وذلك بالتخلص من طريقة المعاني الشائعة والأفكار غير المحصنة لأن المعاني لا تقوم بحال من الأحوال مقام الأشياء نفسها. ويرى دور كاييم أن هذه المعاني تشبه الأصنام أي الأشباح التي تشهد المنظر الحقيقي للأشياء والتي يخيل للإنسان أنها هي الأشياء نفسها، فعلى الباحث أن ينظر إلى الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء خارجية منفصلة عن شعوره الداخلي في ضوء هذا الاعتبار تتحقق موضوعية الظاهرة وشخصيتها العلمية.

د. ضرورة الاعتماد على المنهج الوضعي: الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة والتكامل الرياضي للوصول إلى قوانين، وترتبط الوضعية بالنسبة لكونت *A. Comte* بمرور مرحلة العلم التي تميز "المرحلة الوضعية" وهي آخر محطة في "قانون المراحل الثلاث" بعد "المرحلة التولوجية" (الدينية) و"المرحلة الميتافيزيقية" (الفلسفية)، ويرتبط المذهب الوضعي بالمنتوج "الناضج" الذي قدّمه التطور البشري، والخدمات الجمة التي أسدها العقلانية العلمية له، وعلى المعرفة عند كونت أن تستند في منهجها على ملاحظة الواقع بعيداً عن المعارف "المسبقة" (12)، ما يجعل من الوضعية نسقاً إمبيريقياً يرتبط بالولائية أو الديرقي للعلم، والتي تقوم على الحتمية الميكانيكية. وهنا يبدو أن موقف كونت *A. Comte* غامض، فهو من جهة يشير إلى أن أي اقتراح لا يمكن أن يكون ذو معنى ما لم يتم بلورته في فعل ملموس، في حين أنه ينتقد من جهة أخرى الإمبيقية ويحتج على كانط *Kant* وليبنتز *Leibnitz* لأنهما يعلنان عن وجود تنظيمات ذهنية تلقائية عند الإنسان (13).

ولا يجب الخلط بين المذهب الوضعي والمقاربة الوضعية في بناء المعارف، فمفهوم الوضعية في الحالة الثانية نقيض "المعيارية"، فلا يمكن للمعرفة أن تكون وضعية إلا إذا تناولت ما هو كائن، بعيداً عن "المعيارية" التي تبحث عما يجب أن يكون أو ما هو ذاتي.

ونجد في هذا المجال رائد الفلسفة العلمية غاسطون باشلار، باستعماله لبعض المفاهيم الأساسية التي أحدثت هزات على مستوى تاريخ العلوم شأن مفهوم «التجاوز» و«القطيعة الاستمولوجية»، كان محط اهتمام وتأويل واسع من طرف معاصريه، مثل المفكر الماركسي ألتوسير الذي استعار مفهوم «القطيعة» واستخدمه من

أجل فهم وتطوير فكر ماركس. ذلك أن قراءة ألتوسير لماركس طرحت إبراز المفاهيم المكونة للإشكالية التجريبية أو الاختبارية، للنقد والمراجعة، فالغالبية العظمى من الفلسفات قد استغلت العلوم لأهداف تبريرية تخرج عن أهداف الممارسة العلمية. والحال أن التأويلات الفلسفية لنتائج العلوم بغاية التدليل على بعض القيم الخارجة عن مجال العلم لا تعكس الحقيقة العلمية كما هي بل تعكس منها أعراضا إيديولوجية عملية. ومن مهام الفلسفة، بحسب ألتوسير، رسم الحدود بين ما هو للإيديولوجيا، من جهة، وما هو للعلم من جهة أخرى؛ أي إبراز صور وألوان تسرب الإيديولوجية النظرية والعملية إلى الممارسة العلمية، وفهم العلماء لما يفعلونه، لذلك قدّم باشلار تصورات منهجية صارمة، توصف هذه التصورات بالمرحلة المنهجية للمنهج العلمي، حيث يخضع الباحث نفسه لإجراءات منهجية تجعله لا يندغم في ذاتيته ولا إيديولوجيته، بل تبدو الظواهر له كأشياء، في فكرة رائعة لإسقاط المنهج العلمي في العلوم الطبيعية وعلوم المادة على العلوم الاجتماعية.

ثانيا- المراحل المنطقية للمنهج العلمي: يتصور غاسطون باشلار أن المنهج العلمي يجب أن يمر بثلاث مراحل منطقية تسمو به إلى العلمية والموضوعية، وتبعده عن الذاتية والإيديولوجية، وترسم له مساراً صارماً، تُفصل فيه الذات عن الموضوع، والمعرفة عن الذات العارفة، لا يمكن الحياد عنه، في قوله (15) *Le fait scientifique est Conquis, Construit et Constaté*، فالموضوع مفتك، مبني ومحقق، أي ثلاث مراحل تصورية للمنهج ففكرة المسار عملية قوامها أفعال ثلاثة ينبغي احترام تسلسلها وهذه العملية تسمى الأفعال المعرفية (الابستمولوجيا) هذه الأفعال تتمثل في القطع - البناء - المعاينة (التجريب) " (16).

أ. مرحلة القطع أو الإفتكاك: هناك من البحوث العلمية من استقت موضوع بحثها من ملاحظات، تخضع في بعض الأحيان إلى الصدفة مثل ما حدث مع "نيوتن إسحاق" في حادثة سقوط التفاحة واكتشافه للجاذبية، وفي المقابل نجد ملاحظات لا تخضع لمبدأ الصدفة، فهي ملاحظات تكررت ولاحظها الباحث، فهو مدرك للواقع "يعني إدراك مادة البحث بالحواس إدراكاً متفكراً، أي إدراكاً فيه تفكير في حقيقة الواقع الملاحظة"، وهذه الملاحظات تصبح موضوع البحث، لا بد إذن من اعتماد الاستطلاع والمعاينة إزاء الظاهرة وإدراك مادة البحث، "ومن هنا أهمية القطع الذي يركز تحديداً على فصم أية علاقة مع الأحكام المسبقة والبديهيات الخاطئة التي توهمنا فقط بأننا نفهم الأشياء."

إضافة إلى قدرات الباحث على متابعة هذا العمل أو البحث، وهذا لما اكتسبه من قدرات في مجال بحثه، ويجب أن يكون دقيقاً في ملاحظته ولا يفوت جزءاً من تفاصيل الظاهرة المراد دراستها، وهذه الملاحظة تبعث على طرح تساؤل وصياغة الإشكالية العلمية.

فالفعل العلمي يُجنى على ضوء إشكالية نظرية، ويقوم ضدّ البديهية وضدّ كلّ التصورات المسبقة للمعارف الجاهزة، بهذا المعنى يتحدث باشلار عن "فلسفة الرفض *Philosophie du Non*"، لأنّ الوصول للمعرفة كما هو الحال في تاريخ العلم يركز على "القطيعة الإيستمولوجية *Coupure épistémologique*" التي تُحدث انفصلاً نوعياً مع "التفكير القبل- علمي *Pré-scientifique*"، فمن أجل إنتاج معارف جديدة يجب تخطي العوائق الإيستمولوجية (17).

ب. **مرحلة البناء:** في هذه المرحلة يسعى الباحث إلى بناء نموذج تحليلي خاص والذي هو عبارة عن مفاهيم يستقيها أو يأخذها من نظريات، فهذا النسق المفاهيمي أو النموذج له القدرة على التعبير عن المنطق الذي يفترضه الباحث في أساس الظاهرة، وبما أن النسق المفاهيمي مرتبط مباشرة بالنظرية، فالباحث يبيّن موضوعه وفق هذا النموذج، ويتنبأ بخطط وعمليات البحث وتوقع النتائج "وبفضل هذه النظرية بإمكان البحث أن يبيّن قضايا تفسيرية ويتنبأ بخطط البحث.... والعمليات التي سينفذها والنتائج التي يجب أن يتوقعها منطقياً في نهاية المعايينة.

ففي عملية البناء تظهر ثلاث خطوات أساسية هي التفسير والتنبؤ، والاستنتاج، ولا بد أن يكون للباحث إطار نظري مرجعي، ينطلق منه بحثه، وتعتبر مرحلة البناء من أصعب مراحل البحث العلمي التي تستدعي استعمال اليقظة الإيستمولوجية *la vigilance épistémologique* (18) كما يسميها بوردو، نظراً لأن الفرد جزء من المجتمع فيجعله ذلك يتوهم أنه يعرف الحقيقة وأنّ الواقع لديه شفاف.

ج. **مرحلة الإثبات أو التحقيق (المعاينة):** في مرحلة الإثبات تأتي عملية التجريب أو الإثبات، إثبات الفروض وهذا بالاعتماد على معلومات من الواقع الملموس، والتجريب بمدلوله الدقيق يتبوأ الصدارة في الطبيعة كأداة للبحث العلمي، وفيه تتحول الفروض إلى قوانين علمية "ليس لأي افتراض أن يتبوأ مكانة علمية، إلا بقدر ما يكون قابلاً لأن يثبت بمعلومات من الواقع الملموس، "فالنشاط العلمي لا ينبع من الاستقراء بل من الفرض أو التحقيق" (19)، لذلك تبدأ في هذه المرحلة العلاقة المباشرة للذات الباحثة مع الموضوع المبحوث وفقاً لقواعد وسبل يسير عليها الباحث، كما يقول "كلود برنار" فإن المناهج لا يمكن أن تدرس نظرياً كقواعد عامة تفرض على الباحث السير وفقاً لها، إنما تتكون في داخل العمل الذي هو معيد العلم الحقيقي و إبان الاتصال المباشر بالوقائع" (20).

أما دوره في العلوم الاجتماعية فهو جد متواضع بالمقارنة مع العلوم الطبيعية بحكم طبيعة ظواهر هذه العلوم (العلوم الاجتماعية) مقارنة بالعلوم الطبيعية.

ثانيا- الخطوات الإجرائية لمسار البحث: ترجم ريموند كيفي Raymond Quivy وأستاذه فان كوبنهود Loc Van Campénhoudt (21) تلك الخطوات المنطقية إلى خطوات إجرائية بحثية تمثلت في:

المرحلة الأولى	سؤال الانطلاق	}	القطيعة
المرحلة الثانية	القراءات والاستكشافات والمقابلات		
المرحلة الثالثة	الإشكالية		
المرحلة الرابعة	بناء نموذج التحليل	}	البناء
المرحلة الخامسة	الملاحظة	}	التحقيق
المرحلة السادسة	تحليل المعلومات والمعطيات		
المرحلة السابعة	النتائج والخاتمة (22)		

- سؤال الانطلاق: "إن المشكل الأول الذي يُطرح على كل الباحثين هو معرفة كيفية الانطلاق في البحث" (23)، فيبدأ الباحث مباشرة في اختيار مسار انطلاق منهجي، لذلك على الباحث أن يعبر عن مشروع بحثه في شكل سؤال انطلاقي، ويجب أن نشير هنا أن أشهر الباحثين لا يترددون في التعبير عن مشاريعهم في شكل أسئلة بسيطة وواضحة، يتساءلون فيها بعفوية بحيث تتم رؤية المؤلف غير مألوف، بخيال يجعل الباحث يطرح تساؤله عن هذا الغموض أو عن العلة أو العلاقة.

لكن من الضروري أن نفرّق بين سؤال الانطلاق والإشكالية، فالخلط المنهجي وتجاوز مراحل منطقية وإجرائية بكاملها أمر يجعل البحث يحيد عن مساره العلمي ويعطيه صبغة أخرى غير العلمية. فسؤال الانطلاق هو سؤال أولي بحثي يصدره الباحث عفويا للتساؤل عن الظاهرة أو الحيرة في سلوك معيّن، فهذا التساؤل لا يحمل بُعدا علميا ولا مقارنة نظرية، بل هو تساؤل شخصي لم تكتمل بعد أبعاده العلمية، ولم يُبنى بعد ليرتقي أن يصبح إشكالية.

ويجب أن يتّصف سؤال الانطلاق بما يلي : (24)

أ. الوضوح: ويعني ذلك أن يكون السؤال بسيطا ودقيقا وموجزا، موجّها مباشرة إلى المشكلة.

ب. القدرة على تحقيقه: حيث يكون الباحث على مقدرة تامة لتحقيق وتنفيذ البحث، وتكون له كل المؤهلات العلمية والمادية وكل الظروف لتحقيقه.

ج. أن يكون سؤالاً واقعياً قابلاً للقياس: أي أن المتغيرات المدروسة تقبل القياس ويمكن التجريب عليها أن وصفها.

2- القراءات والاستكشافات: وهي المرحلة التي يقوم فيها الباحث بجمع المعلومات المتاحة عن المشكلة وتختلف مصادر المعلومات باختلاف طبيعة البحث نفسه فقد تكون:

أ. الكتب ذات المرجعية وخاصة المقاربات النظرية السوسيولوجية.

ب. استكشافات ميدانية يجريها الباحث ليحصل منها على بعض البيانات والمؤشرات الأولية القابلة للبحث.

ج. إحصائيات يجمعها الباحث بنفسه.

د. بيانات ودراسات سابقة أعدها باحثون سابقون.

هـ. سجلات مختلفة وإحصائيات.

و. أجوبة وأسئلة في شكل استبيان أولي.

ي. مقابلات شخصية وأحاديث وخطب وجرائد وتقارير صحفية.

3- صياغة الإشكالية: تعتبر صياغة الإشكالية العلمية أمراً ليس بالهين وفيه إجراءات منهجية معقدة تبدو

للبعض أنها مجرد أسئلة يطرحها البعض على شكل تساؤل عام أو أسئلة فرعية، لكن الإشكالية أعمق بكثير من

سطحية التساؤلات البسيطة، فالإشكالية ترفع مستوى التساؤلات من المستوى البسيط المجرد إلى المستوى

المعرفي الرفيع، أي يتم طرح التساؤلات على مستوى المقاربة النظرية المختارة.

إن إعادة صياغة التساؤل الأولي "سؤال الانطلاق" ضمن المفاهيم الخاصة بالمدخل المختار، وكذلك فتح آفاق

للإجابة عنه ليست عمليات بسيطة و هينة، ذلك حتى وإن تعلق الأمر بنظرية معروفة، فإن إعادة صياغة

الإشكالية بطريقة واضحة و منسجمة هو أمر ضروري لأن إهمال هذه العملية من شأنه أن يؤدي غالباً

بالباحث المبتدئ إلى الفشل في المرحلة الموالية المتعلقة بالبناء.

ضف إلى ذلك أن المقاربة النظرية التي يتبنها الباحث لا يجب أن يكون اختيارها اعتباطياً، فيجب أن يعطي

الباحث كل تبريراته المنهجية والمنطقية لتبنيه لهذه المقاربة، والتي يصريح بتبنيها تصريحاً تاماً، فقد سجل بوبار

K.Popper بأن العلم يولد في المشاكل وينتهي في المشاكل، في حين أكد باشلار على أن الطريقة العلمية

تقتضي بناء إشكالية تأخذ انطلاقتها الواقعية من "مشكل". (25)

4- بناء نموذج التحليل: يمثل مرحلة اكتشاف العلاقة الكامنة التي تنتظم فيها كل عناصر الظاهرة المبحوثة، للتحويل من المعلومة التي لا يحكمها نسق إلى معرفة مترابطة في إطار نسقي، ثم يتم ربط العلاقات والأسباب عن طريق بناء الفرضيات.

فالفرضية بمعناها العلمي الدقيق ليست تكهن أو إجابة مؤقتة عن تساؤل هكذا اعتباطيا، لكن يجب أن ترتكز على مرجعيات علمية يمكن البناء من خلالها، إذا ... فهي بمعنى آخر "مشروع قانون علمي".

يعتبر كلود برنارد أول من صاغ فرضا علميا في تجربته قائلا " ذات يوم، أحضر لي أحدهم أرانب اقتناها من السوق. وحين وضعتها على منضدة المختبر تبولت، فلاحظت بالصدفة أن بولها صاف وحمضي. واسترعاي ما لاحظته، لأن بول الأرانب يكون، عادة، مكدر اللون وغير حمضي، باعتبار أنها حيوانات عاشبة، في حين أن بول الحيوانات اللاحمة يكون، كما هو معلوم، صافيا وحامضا. وقد قادتني ملاحظتي للحموضة في بول الأرانب إلى تصور أن هذه الحيوانات قد أخضعت لنظام غذائي يناسب الحيوانات اللاحمة. فافترضت أن من الأرجح أنها لم تذق الطعام منذ فترة طويلة، وأنها تحولت، بفعل الإمساك الطويل عن الأكل، إلى حيوانات لاحمة تقتات من دمها لكي تعيش. ولم أجد أمرا أيسر من التحقق، بواسطة التجربة من صحة هذه الفكرة المفترضة أو هذه الفرضية.

لذلك تستند الفروض لمرجعيات علمية تجعل إطار البحث في مشروع علمي وليس تكهني، كما تتكون الفرضية من متغيرين أو أكثر.

5- الملاحظة: إن الهدف من السوسيولوجيا -حسب مارسيل موس- "هو ملاحظة المجموعة الاجتماعية وسلوكاتها ملاحظة شمولية" (26) والفاعلون الاجتماعيون -حسب بيير بورديو- لا يعرفون حقيقة ما يفعلون ولماذا، والنظرية الاجتماعية تعتبر أن الفاعلين الاجتماعيين لا يعرفون الأسباب الموضوعية التي تقودهم. ويسعى السوسيولوجي إلى فهم الظواهر الاجتماعية وسلوكات الأفراد لتفسير دلالاتها معتمدا على الملاحظة والمعاينة المباشرة للوقائع الاجتماعية لشرح لماذا توجد على نحو ما وليس على نحو آخر، "إذا توافقنا على القول بأننا نسمي شيئا كل واقعة يمكن ويجب علينا ملاحظتها من الخارج وإننا لا نعرف طبيعتها مباشرة" (27)، لتأتي مرحلة التأويل والربط بين واقعة/سلوك وبين العلاقة الجدلية بين ما هو فردي وما هو جماعي. فالملاحظة حسب دوركايم هي بداية الممارسة السوسيولوجية، أن تلاحظ محاولا التخلص من كل حكم قيمة.

وتعتبر الملاحظة في عين المكان كتقنية للتقصي بصفة مباشرة، وذلك بهدف أخذ معلومات كيفية من أجل فهم المواقف والسلوكيات، حيث تكون الملاحظة منتظمة عندما يتعلق الأمر "بوصف صادق للسلوكيات والتنبؤ بها". (28)

وكما قال *Strauss.C.L* "بعد روسو *Rousseau* وبطريقة قطعية علمنا ماركس *Marx* أن العلاقات الاجتماعية لا تبنى على مستوى الأحداث... بل الملاحظات في شرح ما يحدث في الواقع..." (29).

6- تحليل المعلومات: تعتبر مرحلة تحليل البيانات أحد أهم المراحل في الدراسة أو البحث العلمي ذلك أنه يتم في هذه المرحلة استعراض و تحليل البيانات المختلفة و التي تم جمعها باستخدام أحد طرق جمع البيانات الوصفية أو الكمية، والهدف من تحليل المعلومات هو الإجابة عن سؤال الانطلاق ، وفيها يجمع الباحث معلوماته من خلال أدوات بحثه التي اختارها ، مقابلة ، استمارة ، اختبارات ... ثم يقوم بتفريغ هذه البيانات والمعلومات ويعيد قراءتها.

7- الخلاصات: وفيها يدوّن الباحث كل ما توصلت إليه دراسته— ويقارنها بفروضه التي فرضها ليعطي بعد ذلك حول عامة لنتائجه ودراسته.

ثالثا- الموضوعية ودرجاتها: يستهدف المثل الأعلى لكل خطاب علمي إنتاج معرفة موضوعية عن الواقع، فالعلم يقف ضد الأفكار الجاهزة والضغوط والتصورات والآراء والأحكام القيمية، ويهدف إلى إنتاج معارف مصاغة بلغة دقيقة جداً يجعلها خاضعة للنقد واختبارات الرفض أو القبول أو التحقق، وترتكز هذه الموضوعية، في التقليد الوضعي، على ضرورة التخلي عن الأفكار القبلية والخضوع لقرار الظواهر مهما كان (30).

زعزع النقد الموجّه للإمبريقية والاستقرائية، بقوة، هذا البناء الخاص بمفهوم الموضوعية، وفي هذا الإطار تعرّضت "موضوعانية" إميل دوركايم *E.Durkheim* وأتباعه للنقد اللاذع ، وتبنى بعض علماء الاجتماع، وقوفاً ضد هذه الموضوعانية المفرطة، وجهة نظر ذاتية ونسبية، مؤكدين على أن عالم الاجتماع، كونه يعيش بين الموضوع الذي يعالجه لا يمكنه "دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء".

وأمام تعرّض "الاجتماعي" في دراسته لآراء مختلفة، يصبح الجزم بينها أو ترجيح الواحد على الآخر غير ممكن، وتبقى لكل الخطابات في هذا النطاق بقيمها العلمية ما دامت تدّعي أنّها تبني الظواهر لكن وفقاً لوجهة النظر التي تناسبها (31).

هكذا تضع التصوّرات النسبية مفهوم "الموضوعانية" في حرج وتجبر أصحابها على الاعتراف بنسبيتها هي الأخرى، فالواقع حقيقة غير شفاف، لهذا يجب على الظواهر أن تكون مبنية، ولا يجب أن تكون مبنية بشكل

تعسفي، فهي مبنية انطلاقاً من إشكالية يمكنها بل يجب أن تكون توضيحية لموضوعها، وعلى عالم الاجتماع تحديد مصطلحاته وتوضيح تقنيات بحثه كما أن عليه أثناء هذا العمل العلمي التحلي "باليقظة الإيستمولوجية"، فأسئلة الاستمارة مثلاً قد تحمل صيغة لتثوية على الإجابات، واستخدام المعطيات الإحصائية دون إخضاعها للحس النقدي قد يوصل إلى نتائج وهمية . لهذا على الباحث تدريب نفسه باستمرار على اليقظة الإيستمولوجية ونظراً لاحتمال السقوط في المزالق كان العمل الجماعي أحسن ضابط موجه لأنه يسمح في الآن ذاته بالتركيز على التجربة المباشرة الآنية (وأحياناً على المعاني المشتركة) التحرر من الأفكار القبلية وتخطيطها.

إلا أن الموضوعية لا تُعطى جاهز بشكل تام، لأنها تمثل المثل الأعلى الذي يطمح الباحث للوصول إليه ولا يتم ذلك كله إلا ببذل الجهود المستمر في طريق القطيعة الإيستمولوجية. وكما يرى إلياس (1897-1990) على الباحث في العلوم الاجتماعية أن يتموقع دوماً بين "الالتزام" و"التباعد" (32).

إنّ التخلص من الذاتية في العلوم الاجتماعية أمر غاية في الصعوبة، كون الذات متغيرة لا يمكنها أن تدرك نفسها وتعتقد بأنها ثابتة، لأنها ببساطة تستخدم الحواس في المعرفة العلمية وهو خطأ منهجي، وفي هذا المجال نورد مثلاً عن الذاتية والموضوعية:

نضع إناء ماء في غرفة مغلقة، ونطلب من أحدهم أن يبقى في الخارج لساعة في فصل الشتاء، ثم نطلب منه الدخول وإبداء رأيه في حرارة الماء هل هو دافئ أم بارد، سيحاول أن يقيس عن طريق حاسة اللمس، فيبدو له الماء دافئاً، نعيد نفس التجربة في فصل الصيف بنفس درجة حرارة الماء، سيقول بأن الماء بارد !!!
إن الموضوع في هذه الحالة ليس متغيراً، بل الذات التي تغيرت جراء المحيط، رغم أنها تعتقد بأنها لم تتغير وأنها تدرك الحقيقة الكاملة، وذلك عن طريق الحواس، حينها يقول ديكارت الحواس تخدعنا من وقت لآخر ، وأنه من الحكمة ألا نثق كلياً في الذين خدعونا ولو مرة واحدة.

ففي التجربة يستطيع الباحث أن يفصل بين الذات المتغيرة والموضوع الثابت بالمنهج العلمي السليم ألا وهي أدوات المنهج العلمي، فيمكن أن يقيس حرارة الماء بجهاز "ترمومتر حراري" حتى يخرج نهائياً من الموضوع بذاته ولا يغمس فيه، فتكون العلاقة بين الذات والموضوع هي الأداة العلمية.
ولقد فرض ذلك على العلماء في العصر الحديث ألا يتجاوزوا الأمور الواقعية وأن يتعدوا عن الأحكام التقييمية المستندة إلى عقيدة دينية أو مذهب أخلاقي. فتقييم الأشياء والأفعال تقييماً يجعل من بعضها خيراً ومن بعضها الآخر شراً يبعد الباحث عن المنهج العلمي الذي لا يفرق بين خير وشر ولا بين جميل وقبيح (33).

وبانتهاء التحيزات الشخصية والأهواء الذاتية تحطمت بذلك المذاهب الفلسفية الذاتية والأساطير والمذاهب الأخلاقية وظهر منهج علمي يعتمد على الحتمية والتعميم والحسية ووحدة وترابط ظاهرات الطبيعة والموضوعية والصدق والقوانين العلمية هذه المسلمات التي اعتمد عليها المنهج العلمي جعلت العلوم طبيعية واجتماعية تستخدمه وبذلك تمكنت هذه العلوم من الوصول إلى قوانين علمية تحكم الظواهر الطبيعية والاجتماعية وقامت بذلك نظريات علمية باستخدام هذا المنهج العلمي.

خاتمة:

من خلال هذه الورقة البحثية التي أردنا من خلال وضع معالم عامة، وتصور حول المنهج العلمي في العلوم الاجتماعية، رأينا أنه من الضروري إذا أردنا أن نضبط السبيل العلمي للبحث في العلوم الاجتماعية وأن نصل بمقاربات تقترب أكثر إلى الدقة والموضوعية، أن نعتقد بمناهج —على الأقل تلك المتوفرة— تعتمد الصرامة العلمية والحس التجريبي والعقلانية، حتى نستطيع إخراج العلوم الاجتماعية من دائرة المقاربات الفلسفية والطروحات الشخصية والذاتية، وخاصة بما يبعث على الارتياح بما يفرضه منطق ومنهج غاسطون باشلار في تصوّر منطقي من إفتكاك للموضوع وبناءه ثم تحقيقه، عن طريق قطيعة إيستمولوجية تخدم البحث وتستفيد من التراكم العلمي وتبني في إطار قفزات كيفية مناهج جديدة مبتكرة، تقارب مناهج البحث العلمي في علوم المادة والعلوم الطبيعية، كما حاولنا أن نسلط الضوء على الخطوات الإجرائية للبحث في العلوم الاجتماعية التي اقترحها ريموند كيافي *Raymond quivy*، مشكّلة من سبعة مراحل متسلسلة ومتراطة إجرائيا ومنطقيا بحيث تخدم كل مرحلة الأخرى بطريقة علمية سلسلة تزيح اللبس عن المنهج العلمي الرصين، وتدفع وتيرة البحث إلى مستويات إبداعية.

قائمة المراجع:

1. جون بولكنجهوم، ما وراء العلم، ترجمة علي يوسف علي، المجلس الأعلى للثقافة، العدد 55، 1999. ص113.
2. محمد علي محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمي، دار المعرفة بالإسكندرية، القاهرة، 1983، ص45.
3. Maurice Angers, *Initiation pratique a la méthodologie des sciences humaines*, Ed Casbah, Alger, 1997, p58.
4. عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، الطبعة الحادية عشر، مكتبة وهبة، القاهرة، 1990، ص 1.
5. Gaston Bachelard, *Le rationalisme appliqué*, Paris, PUF, 1949, p. 38.
6. Cf. Wright Mills, *L'imagination sociologique*, Paris, Maspéro 1977.
7. Giddens (A), *Profiles and critiques in social theory*, Mac Mila, London, 1982, p43.
8. إميل دوركايم، قواعد المهج في علم الاجتماع ترجمة محمد قاسم، مكتبة النهضة المصرية، 1961، ص ص 229 – 233.
9. المرجع نفسه ، ص 50.

10. محمد عاطف غيث، علم الاجتماع: النظرية والمنهج والموضوع دار القاهرة 1980، ص 46.
11. أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي: مدخل لدراسة المجتمع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص 71.
12. A.Comte, *Discours sur l'esprit positif*, Idea, Cérés, Tunis, 1994, p.10-20
13. Ibid, p 34.
14. A.Akour, P.Ansart (sous la direction), *Dictionnaire de sociologie*, Robert, Suil, 1999, p.411.
15. Bachelard, (G) , *La formation de l'esprit scientifique*, Paris, Librairie philosophique, 1965.
16. Raymond Quivy ,luc Campenhoudt , *manual de recherche en sciences sociales* , Paris , Dunod , 1988,pp 13, 14 .
17. محمد عابد الجابري، (التراث ومشكل المنهج)، المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ، 1986، ص 37.
18. Bourdieu, (P). J.C.Chamboredon, J.C.Passeron, *Le métier de sociologue*, 2ed, Mouton, Paris, 1973.
19. MANUEL MARIA CARRILHO, « *LA PHILOSOPHIE DES SCIENCES : de BACON à Feyerabend* », dans : *LA PHILOSOPHIE anglo-saxonne*, Sous la direction de Michel Meyer .PUF, 1er édition ,PARIS, 199.p503.
20. محمد الغريب عبد الكريم ، البحث العلمي : التصميم و المنهج و الإجراءات ط3، مكتب فضة الشرق، القاهرة، 1987 ، ص 18.
21. Raymond (Q), Luk(V.C), *Manuel de recherche en sciences sociales*, Bordas, Paris, 1988.
22. Raymond (Q), Luk(V.C), *op.cit*, p 15.
23. Ibid. p 25.
24. Ibid. p 28.
25. Alain Beitone, et al, *Sciences sociales*, Paris, Dalloz-Sirey, coll. « Aide-memoire », 2012, p.6
26. Marcel Mauss, « *Essai sur le don: Forme et raison de l'échange dans les sociétés primitives* », (en ligne)Les classiques des sciences sociales, 106 pages, P104. Date de consultation 25.11.2014.
27. Aron, Raymond, *les étapes de la pensée sociologique*, Tome II, CERES, Tunis, 1994. P 452.
28. Sabourin. M. Belanger. D. *Règles déotologie en recherche*. 3eme Ed .1988.p 367.
29. Strauss. C.L. *Anthropologie Structurale* .Plon. Paris.1958, P 306.
30. C.Riviere, *L'objet social, essai d'épistémologie sociologique*, Librairie M.Rivire et Cie, 1969, p.36.
31. P.Ansart, *Les sociologies contemporans*, Seuil,1990, p.14.
32. Alain Beitone, et al, *op.cit*, p.12.
33. جون ديوي، المنطق: نظرية البحث ترجمة زكي نجيب محمود، ط2، دار المعارف، مصر، 1969، ص 154.

